

## عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ المحاضرة ٤: أَرْبَعُ خُطُواتٍ بِالتَّرْتِيبِ العَكْسِيِّ أ.ر. سي. سبرول

نُمارِسُ هُنَا الدِّفَاعِيَّاتِ، أَي تَقْدِيمَ دِفَاعٍ فِكْرِيٍّ عَن تَصْرِيحاتِ المَسِيحِيَّةِ. وَأوَّلُ شَيْءٍ عَلَيْنَا التَّعَامُلُ مَعَهُ، عِنْدَ وَضْعِ اسْتِراتِيجِيَّةٍ لِتَكْوِينِ دِفَاعٍ فِكْرِيٍّ، يَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ الإِبِسْتِيمُولُوجِيَا. أَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ تَبْدُو غَرِيبَةً عَلَي مَسامِعِ الكَثِيرِينَ. لِذا، سَأَصْرِفُ بَضْعَ لِحْظَاتِ اليَوْمِ لِتَوْضِيحِ ما هِيَةِ الإِبِسْتِيمُولُوجِيَا، وَسَبَبِ أَهْمِيَّتِها الكَبِيرَةِ لِعِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ بِرُمَّتِهِ.

لِنُدَوِّنْ هَذِهِ الكَلِمَةَ عَلَي السَّبُورَةِ - إِبِسْتِيمُولُوجِيَا - إ-ب-ي-س-ت-ي-م-و-ل-و-ج-ي-ا. الإِبِسْتِيمُولُوجِيَا هُوَ فَرْعٌ مِنَ فُرُوعِ الفَلَسَفَةِ، يُرَكِّزُ عَلَي سُؤالِ أَساسِيٍّ بِالِغِ الأَهْمِيَّةِ، وَهُوَ: كَيْفَ نَعْرِفُ ما نَعْرِفُهُ؟ وَكَيْفَ يُمكِنُنا إِثباتُ صِحَّةِ أَوْ خَطَأِ ادِّعاءٍ ما؟ نُصَادِفُ ذَلِكَ طَوَالَ الوَقْتِ. فَرُبَّما أَقولُ لَكَ شَيْئًا، فَتَقُولُ لي: "كَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ؟" فَأُجِيبُكَ: "عَرَفْتُ ذَلِكَ لِأَنَّ..."، مُقَدِّمًا دِفَاعًا أَوْ سَبَبًا، وَمُحاوِلًا إِثباتَ ذَلِكَ الادِّعاءِ بِالِاحتِكامِ إِلى أَساسٍ مِنَ المَعْرِفَةِ. يَقُولُ البَعْضُ: "لا أُوْمِنُ بِاللَّهِ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَنْظُورٍ. وَمَا لَمْ أَتَمكِّنْ مِنَ رُؤْيَيْهِ، أَوْ تَدَوُّقِهِ، أَوْ لَمْسِهِ، أَوْ سَمِّهِ، أَوْ الاسْتِمَاعِ إِليهِ، لَنْ أُوْمِنَ بِهِ". يَقُولُ هَذَا الشَّخْصُ إِذَنْ: "بِرايِي، المَعْرِفَةُ الوَحِيدَةُ السَّلِيمَةُ هِيَ الَّتِي يُمكِنُ اخْتِبارُها مِنَ خِلالِ حاسَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنَ الحُواسِّ الخَمْسِ". وَيَقُولُ آخَرٌ "مَهلاً، أَنَا مِنَ مِيزُورِي، وَحَتَّى إِذا رَأَيْتُ الشَّيْءَ، لَنْ أَصَدِّقَ، ما لَمْ يُمكِنَكَ إِثباتُهُ لي بِيقِينِيَّةِ المُعادَلاتِ الحِسابِيَّةِ، لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ شُهُودَ العِيانِ كَثِيرًا ما يُخْطِئُونَ، وَيَتَّخِذُونَ بِما يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ رَأَوْهُ. وَرُبَّما يَهْلُوسُونَ أَوْ ما إِلى ذَلِكَ. إِذَنْ، البُرْهانُ الوَحِيدُ الَّذِي سَأَرِضُ لَهُ هُوَ البُرْهانُ المَنْطِيقِيُّ وَالْمَنْهَجيُّ، كَذَلِكَ البُرْهانُ المُسْتَمَدُّ مِنَ المُعادَلاتِ الحِسابِيَّةِ، عَلَي مُستَوى اثْنَيْنِ زائِدِ اثْنَيْنِ يُساوي أَرْبَعَةً".

إِذَنْ، تَعْتَمِدُ المَجْمُوعَةُ الأُولَى مِنَ النَّاسِ عَلَي الحُواسِّ. وَتَعْتَمِدُ المَجْمُوعَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي ذَكَرْتُها لِتَوَيُّ عَلَي العَقْلِ، وَعَلَي عَمَلِيَّاتِ التَّفكيرِ المَنْهَجيَّةِ. وَعِنْدَما نَأْتِي إِلى مَسأَلَةِ الحَقِّ، يَجِبُ أَنْ نَسأَلَ: "ما العِناصِرُ اللازِمَةُ لِتَعْرِفِ أَنَّ أَمْرًا ما صَحيحٌ؟"

تُوجَدُ عِدَّةُ مَنهَجِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ لِتَنأُولَ مَسأَلَةَ الإِبِسْتِيمُولُوجِيَا، وَلا سِيَّما فِي عِلاقَتِها بِعِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ. قالَ البَعْضُ إِنَّ الدِّفَاعَ اللاتِيقَ الوَحِيدَ هُوَ المُتَأَصِّلُ فِي المَعْلُوماتِ التَّارِخِيَّةِ، وَالَّذِي يُعْرِفُ بِالْحُواسِّ الخَمْسِ. وَيَقُولُ آخَرُونَ: "كَلَّا، هَذِهِ مَنهَجِيَّةٌ أَقلُّ مِنَ لائِقَةٍ. فَالسَّبِيلُ الحَقِيقِيُّ الوَحِيدُ لِإثباتِ وُجُودِ اللَّهِ هُوَ الاسْتِدلالُ المَنْطِيقِيُّ". وَيَقُولُ آخَرُونَ: "كَلَّا كما مُخْطِئٌ تَمامًا. فَالسَّبِيلُ الحَقِيقِيُّ الوَحِيدُ لِلْمَعْرِفَةِ عَنِ اللَّهِ هُوَ التَّسليمُ بِذَلِكَ مِنَ البِدايَةِ، كَأَفْتِراضِ مُسبَقِي

ضُرُورِيٌّ لِأَيَّةِ مَعْرِفَةٍ، إِلَى آخِرِهِ. إِذَنْ، ثَمَّةَ اخْتِلَافٍ فِي الرَّأْيِ حَوْلَ الْمَزِيحِ الْمَطْلُوبِ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ لِتَكْوِينِ دِفَاعٍ سَلِيمٍ عَنِ الْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ.

سَأَتَنَاوَلُ الْأَمْرَ بِالترْتِيبِ الْعَكْسِيِّ نَوْعًا مَا. وَسَأَتَنَاوَلُهُ بِالترْتِيبِ الْعَكْسِيِّ بِطَرِيقَتَيْنِ. الطَّرِيقَةُ الْأُولَى الَّتِي سَأَتَنَاوَلُ بِهَا الْأَمْرَ بِالترْتِيبِ الْعَكْسِيِّ هِيَ: مُنْذُ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ، عِنْدَمَا كُنْتُ أَعْلَمُ طُلَّابَ السَّنَةِ النَّهَائِيَّةِ فِي كَلْبِيَّةِ اللّاهُوتِ بِفِيلادِلْفِيَا، بِجَامِعَةِ تَنْبِل، قَدَمْتُ لَهُمْ مُقَرَّرًا اخْتِيَارِيًّا عَنِ الْإِحَادِ عِبْرَ التَّارِيخِ. وَفِي ذَلِكَ الْمُقَرَّرِ، وَكَجُزْءٍ مِنْ الْمُتَطَلِّبَاتِ الْأَكاديمِيَّةِ، كَلَّفْتُ الطُّلَّابَ بِقِرَاءَةِ الْمَصَادِرِ الْأَوَّلِيَّةِ لِأَكْبَرِ الْمُلْحِدِينَ فِي الْفِكْرِ النَّظَرِيِّ الْعَرَبِيِّ، أَمْثَالِ جُونِ سْتِيوارْتِ مِيل، وَكَارْل مَارْزُكْس، وَجَان بُول سَارْتِر، وَالْبِير كَامُو، وَوَالْتِر كُوفْمَان، وَغَيْرِهِمْ. وَخِلَالَ فَحْصِنَا لِلْمَصَادِرِ الْأَوَّلِيَّةِ لَهُؤْلَاءِ الْعُلَمَاءِ الْاسْتِثْنَائِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا مُلْحِدِينَ، أَعْرَضْنَا انْتِبَاهًا كَبِيرًا لِلْكَيفِيَّةِ الَّتِي كَوَّنَ بِهَا هَؤْلَاءِ الْمُعَارِضُونَ لِلْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ حُجَجَهُمُ السَّلْبِيَّةَ. وَبِالنَّظَرِ إِلَى الْأَمْرِ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ، لَاحَظْتُ ظُهُورَ نَمَطٍ، وَهُوَ كَالتَّالِي: اكْتَشَفْتُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ تَقْرِبًا مِنْ هَؤْلَاءِ الْمُفَكِّرِينَ أَوْ الْفَلَسَفَةِ الْمُلْحِدِينَ، فِي مَرَحَلَةٍ أَوْ أُخْرَى مِنْ حُجَجِهِ ضِدَّ الْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ، هَاجَمَ وَاحِدًا أَوْ أَكْثَرَ مِنَ الْمَبَادِيءِ الْإِبِسْتِيمُولُوجِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ الْأَرْبَعَةِ.

دَعُونِي الْآنَ أَذْكَرُهَا لَكُمْ. الْمَبَادِيءُ الْأَسَاسِيَّةُ الْأَرْبَعَةُ لِلْمَعْرِفَةِ، الَّتِي هَاجَمَهَا الْمُلْحِدُونَ إِمَّا جُزْئِيًّا أَوْ كَلِّيًّا، هِيَ أَوَّلًا، قَانُونُ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، أَوْ مَا يُعْرَفُ أحيانًا بِقَانُونِ التَّنَاقُضِ. فَلَدَحِضِ الْحُجَّةَ الْمُؤَيَّدَةَ لِوُجُودِ اللَّهِ، عَارِضَ بَعْضِ الْفَلَسَفَةِ قَوَائِنِ الْمَنْطِقِ الْأَسَاسِيَّةِ نَفْسَهَا - مِثْلَ قَانُونِ التَّنَاقُضِ. الْمَبْدَأُ الثَّانِي، الْأَكْثَرُ تَعَرُّضًا لِلهُجُومِ، كَمَا سَتَرَى لِاحِقًا، هُوَ قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ، أَوْ مَا يُسَمَّى أحيانًا بِقَانُونِ السَّبَبِ وَالتَّيَجِّةِ. وَسَتَنَاوَلُ هَذَا الْعُنْصَرَ مِنْ نَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ عَلَى حِدَةٍ. وَالْمَبْدَأُ الثَّلَاثُ الَّذِي تَعَرَّضَ لِلهُجُومِ هُوَ مَا أُسَمِّيهِ بِمَبْدَأِ الْمُؤْتَوِقِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلْإِدْرَاكِ الْحَسِّيِّ.

وَأَقْصِدُ بِالْإِدْرَاكِ الْحَسِّيِّ مَا ذَكَرْتُهُ مُنْذُ دَقَائِقَ عَن حَوَاسِنَا الْحُمْسِ - أَيَّ كَيْفَ نَرَى بِأَعْيُنِنَا، أَوْ نَسْمَعُ بِأَذَانِنَا، أَوْ نَلْمُسُ بِأَيْدِينَا، أَوْ نَشْمُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ. تِلْكَ هِيَ الْحَوَاسِ. فَإِنِّي أَرَى الْآنَ هَذَا الرَّجُلَ الْجَالِسَ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ، أَيُّ أَدْرِكُهُ بِعَيْنِي. هَذَا هُوَ الْإِدْرَاكِ الْحَسِّيُّ. قَدْ أَكُونُ مُخْدُوعًا، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ صُنْعِ خَيَالِي، لَكِنْ تَظَلُّ لَدَيَّ ثِقَةٌ أَسَاسِيَّةٌ فِي الْمُؤْتَوِقِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِحَوَاسِي. لَا تَتَمَتَّعُ حَوَاسِي بِالْمُؤْتَوِقِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ، لَكِنَّهَا عَلَى الْأَقْلَ جَدِيدَةٌ بِالثَّقَةِ بِشَكْلِ أَسَاسِيٍّ. هَذَا هُوَ الْمَبْدَأُ الثَّلَاثُ. أَمَّا الْمَبْدَأُ الرَّابِعُ، الَّذِي قَدْ يَبْدُو لَكُمْ غَرِيبًا وَغَامِضًا لِلغَايَةِ، فَهُوَ مَا أُسَمِّيهِ "الاسْتِخْدَامَ التَّشَابِهِيَّ لِلْغَةِ".

سَأَصْرَفُ وَقْتًا لِلِاسْتِيفَاضَةِ فِي شَرْحِ كُلِّ مَبْدَأٍ مِنْ هَذِهِ الْمَبَادِيءِ الْأَرْبَعَةِ، وَإِظْهَارِ سَبَبِ أَهْمِيَّتِهَا الْبَالِغَةِ فِي أَيِّ دِفَاعٍ جَادٍّ عَن تَصْرِيحَاتِ الْمَسِيحِيَّةِ. لَكِنْ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ، سَأَقُولُ فَقَطُ إِنَّهُ بِالنَّظَرِ بِشَكْلِ غَيْرِ مُبَاشِرٍ إِلَى انْتِقَادَاتِ أَكْبَرِ

خُصُومَ الْمَسِيحِيَّةِ وَالْإِيمَانَ بِوُجُودِ اللَّهِ عَبْرَ التَّارِيخِ، وَكَمَا ذَكَرْتُ سَابِقًا، نَكْتَشِفُ أَنَّ التَّمَطَّ الَّذِي يَتَّبِعُهُ الْمُلْحِدُونَ هُوَ أَنَّهُمْ يُسَاوِمُونَ عَادَةً فِي مَبْدَأٍ وَاحِدٍ، أَوْ أَكْثَرَ، مِنْ هَذِهِ الْمَبَادِئِ الْأَرْبَعَةِ لِلْمَعْرِفَةِ.

وَأَرْغَبُ فِي سَرْدِ هَذِهِ الْمَبَادِئِ لَكُمْ لِأَحْوَالِ حَثِّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ إِلَى الدِّفَاعِ عَنِ الْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ عَلَى أَنْ يَكُونُوا شَدِيدِي الْحِرْصِ، عِنْدَ تَكْوِينِ دِفَاعِهِمْ عَنِ الْمَسِيحِيَّةِ، أَلَّا يُسَاوِمُوا فِي أَيِّ مِنْ هَذِهِ الْمَبَادِئِ الْأَرْبَعَةِ، لِأَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ، فَهُمْ يُقَدِّمُونَ تَنَازُلَاتٍ قَدْ تَهْدِمُ حُجَّتَهُمْ أَمَامَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ. كَمَا يَجِبُ أَنْ أُضِيفَ، كَمَسْأَلَةِ جَانِبِيَّةٍ، أَنَّ هُنَاكَ الْكَثِيرَ مِنْ أَنْظِمَةِ الدِّفَاعِيَّاتِ الْمَسِيحِيَّةِ الَّتِي تُسَاوِمُ بِالْفِعْلِ فِي وَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الْمَبَادِئِ، وَهَذَا بَرَأِي خَطَأً قَادِحٌ فِي مِنْهَجِيَّاتِهَا الدِّفَاعِيَّةِ.

سَبَقَ أَنْ تَحَدَّثْتُ عَنْ طَرِيقَتَيْنِ بِالترْتِيبِ الْعَكْسِيِّ حَاوَلْتُ بِهِمَا تَوْضِيحَ هَذِهِ الْمَبَادِئِ الْمَعْرِفِيَّةِ غَيْرِ الْقَابِلَةِ لِلْمَسَاوِمَةِ. الطَّرِيقَةُ الْأُولَى هِيَ الْعَمَلِيَّةُ الْاسْتِدْلَالِيَّةُ الْمُتَمَثِّلَةُ فِي فَحْصِ أَعْمَالِ الْمُلْحِدِينَ عَبْرَ التَّارِيخِ، وَمُلاحِظَةِ الْأُسْلُوبِ الَّذِي اتَّبَعُوهُ، وَتَحْدِيدِ طَبِيعَةِ افْتِرَاضَاتِهِمْ فِي أَتْنَاءِ تَكْوِينِ حُجَجِهِمْ، وَفَحْصِ مَا إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْافْتِرَاضَاتُ سَلِيمَةً أَمْ لَا. الطَّرِيقَةُ الْأُخْرَى الَّتِي اتَّبَعْتُهَا هِيَ مُلاحِظَةُ الْافْتِرَاضَاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ الْمُفْتَرَضَةِ، الْمُسْتَخْدَمَةِ بِاسْتِمْرَارٍ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، لِأَنَّهُ فِي النِّهَايَةِ، الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ هُوَ سُلْطَنَاتُنَا النِّهَايَّةُ كَمُؤْمِنِينَ، وَالْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ، مَعَ أَنَّهُ مَعْنِي جِدًّا بِالْحَقِّ - أَيِ الْحَقِّ الْمُطْلَقِ - لَكِنَّهُ لَيْسَ مَرَجَعًا مُتَخَصِّصًا فِي نَظَرِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ. فَلَا يُقَدِّمُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ تَحْلِيلًا فَلَسَفِيًّا لِعِلَاقَةِ الْعَقْلَانِيَّةِ بِالْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ، أَوْ لِعِلَاقَةِ الْإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ بِالِاسْتِخْدَامِ التَّشَابُهِيِّ لِلْعَمَلِ. لَا نَجِدُ هَذِهِ الْأُمُورَ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. وَمَعَ ذَلِكَ، عِنْدَمَا نَفْحُصُ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ وَأُسْلُوبَهُ، نَرَى افْتِرَاضَاتٍ مُعَيَّنَةً، أَوْ مَا سَأَسَمِّيهِ هُنَا "افْتِرَاضَاتٍ مُسَبَّحَةً" - وَهِيَ افْتِرَاضَاتٌ يُسَلَّمُ بِهَا الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ عِنْدَ تَوْصِيلِ مُحْتَوَاهُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُهُ. تِلْكَ الْافْتِرَاضَاتُ هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَفْسِهِ؛ وَأَفْتَرِضُ، بِالتَّالِي، أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقِ، لِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْمَخْلُوقَ كَائِنًا يُفَكِّرُ، وَيَشْعُرُ، وَيَتَوَاصَلُ، إِلَى آخِرِهِ. نَرَى، مَثَلًا، فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ افْتِرَاضًا ضَمْنِيًّا بِصِحَّةِ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، حَيْثُ يُفْتَرَضُ فِيهِ أَنَّ الْحَقَّ غَيْرَ مُتَنَاقِضٍ، وَأَنَّهُ يُوجَدُ فَرْقٌ وَاضِحٌ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالْعُصْيَانِ، وَبَيْنَ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، وَبَيْنَ الْمَسِيحِ وَضِدِّ الْمَسِيحِ. فَسَوْفَ نُقَدِّمُ حَسَابًا أَمَامَ خَالِقِنَا، لِأَنَّهُ إِنْ أَوْصَانَا اللَّهُ بِفِعْلِ الْأَمْرِ "أ"، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَعْصِيَ ذَلِكَ فَاعِلِينَ عَكْسَهُ. فَلَيْسَ مَسْمُوحًا لَنَا أَنْ نَسْأَلَ بِخِلَافِ مَا يُوصِي بِهِ اللَّهُ، أَوْ بِخِلَافِ مَا يَنْهَى عَنْهُ. فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَكُونَ طَائِعًا لِكَلِمَةِ اللَّهِ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ، عَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ ضَمْنَ إِطَارِ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، لِأَنَّهُ دُونَ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، لَمَا أَمَكَّنَ فَهْمُ آيَةٍ جُمْلَةٍ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. سَأَحَاوِلُ إِثْبَاتَ ذَلِكَ فِي مُحَاضَرَتِنَا الْمُقْبِلَةِ، لَكِنِ الْآنَ، سَنُلْفِي مُجَدِّدًا نَظْرَةً شَامِلَةً عَلَى الْأَمْرِ، لِأَبِينِ لَكُمْ الْمَبَادِئَ الْأَسَاسِيَّةَ الَّتِي يَجِبُ أَلَّا تُسَاوِمُوا فِيهَا الْبَتَّةَ.

مَاذَا عَنِ قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ؟ هَلْ هُوَ مُسَلَّمٌ بِهِ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ؟ حَسَنًا، كُلَّمَا احْتَكَمَ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، مَثَلًا، إِلَى الْقِيَمَةِ الْإِثْبَاتِيَّةِ لِمُعْجَزَةٍ مَا، يُسَلَّمُ بِمَوْثُوقِيَّةِ قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ. قَالَ يَسُوعُ لِتَلَامِيذِهِ: "إِنْ كُنْتُمْ لَا تُصَدِّقُونَ كَلَامِي، فَصَدِّقُونِي لِسَبَبِ الْأَعْمَالِ نَفْسِهَا". وَعِنْدَمَا جَاءَ نِيقُودِيمُوسُ إِلَى يَسُوعَ لِيَأْتِيَهُ قَائِلًا: "يَا مُعَلِّمَ نَعَلِمُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ اللَّهِ مُعَلِّمًا، لِأَنَّ لَيْسَ أَحَدًا يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ"، كَانَ نِيقُودِيمُوسُ يَقْصِدُ الْآيَاتِ: "أَحَاوِلْ الرِّبْطَ بَيْنَ الْأَدْلَةِ. فَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ إِلَهِيٍّ فَائِقٍ لِلطَّبِيعَةِ وَرَاءَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَعْمَلُهَا، وَإِلَّا لَمَا صُنِعَتْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ". وَبِرَأْيِي، كَانَ نِيقُودِيمُوسُ يُفَكِّرُ هُنَا بِطَرِيقَةٍ مَنْطِقِيَّةٍ وَسَلِيمَةٍ.

لَكِنْ مُجَدِّدًا، حِينَ يَقُولُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ "انظُرْ، هَذِهِ مُعْجَزَةٌ! خَرَجَ الْمَسِيحُ مِنَ الْقَبْرِ، وَقَامَ الْمَيِّتَ"، يُفْتَرَضُ أَنْ نَسْتَنْبِجَ مِنْ ذَلِكَ وُجُودَ سَبَبٍ إِلَهِيٍّ وَرَاءَ الْقِيَامَةِ. لَكِنْ إِنْ قُلْنَا إِنَّهُ يُمْكِنُ لِأَيِّ شَيْءٍ أَنْ يُسَبَّبَ أَيُّ شَيْءٍ، أَوْ إِنَّ أَيَّ شَيْءٍ قَدْ يَحْدُثُ دُونَ سَبَبٍ، تُصْبِحُ الْقِيَمَةُ الْإِثْبَاتِيَّةُ لِلْقِيَامَةِ، أَوْ لِأَيِّ مِنْ مُعْجَزَاتِ الْمَسِيحِ، أَوْ لِأَيِّ مِنْ مُعْجَزَاتِ قَدِيسِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، مَعْدُومَةٌ. إِذَنْ، مُنْذُ الصَّفْحَةِ الْأُولَى لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَحَتَّى النِّهَايَةِ، يُسَلَّمُ بِقَانُونِ السَّبَبِيَّةِ. وَمُجَدِّدًا، سَأَسْتَفِيضُ فِيهِ بِأَكْثَرِ تَفْصِيلٍ فِي مُحَاضَرَةٍ مُنْفَصِلَةٍ، لِأَبَيِّنِ سَبَبِ الْأَهْمِيَّةِ الْبَالِغَةِ لِقَانُونِ السَّبَبِيَّةِ فِي عِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ الْمَسِيحِيَّةِ.

ثَالِثًا، الْمَوْثُوقِيَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِلإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ. مُجَدِّدًا، حَتَّى إِذَا سَلَّمْنَا بِأَنَّ حَوَاسِنَا يُمْكِنُ أَنْ تَخْدَعَنَا. فَالْقَدِيسُ أَوْعَسْطِينُوسُ، مَثَلًا، اسْتُخْدِمَ مَثَلًا شَهِيرًا لِإِظْهَارِ حُدُودِ مَوْثُوقِيَّةِ الإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ، وَهُوَ تَشْبِيهُ "الْمِجْدَافِ الْمَائِلِ". تَشْبِيهُ الْمِجْدَافِ الْمَائِلِ مُسْتَمَدٌّ مِمَّنْ كَانُوا يَسْتُخْدِمُونَ الْمِجَادِيْفَ لِلخُرُوجِ بِقَوَارِبِهِمْ إِلَى الْبُحَيْرَاتِ - أَيِ زَوَارِقِ التَّجْدِيْفِ الْقَدِيمَةِ. رُبَّمَا جَرَّبْتُمْ جَمِيعًا رُكُوبَ زَوَارِقِ تَجْدِيْفِ، فَعِنْدَمَا تَضَعُونَ الْمِجْدَافَ فِي الْمِيَاهِ تَحْتَ أَشْعَةِ شَمْسِ الظَّهِيرَةِ، ثُمَّ تَنْظُرُونَ فِي الْمِيَاهِ، سَتَتَمَكَّنُونَ مِنْ رُؤْيَةِ حَافَةِ الْمِجْدَافِ تَحْتَ سَطْحِ الْمِيَاهِ، وَمِنْ مَوْقِعِكُمْ، يَبْدُو لَكُمْ يَقِينًا أَنَّ الْمِجْدَافَ مَائِلٌ، بِفِعْلِ انْكِسَارِ الضَّوئِ. إِذَنْ، مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِكُمْ وَأَنْتُمْ جَالِسُونَ فِي الزُّورِقِ، وَإِذَا كُنْتُمْ تَجْهَلُونَ قَوَائِنَ الضَّوئِ وَالانْكِسَارِ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ، سَتَسْتَنْتِجُونَ أَنَّ الْمِجْدَافَ مَائِلٌ. هَكَذَا يُمْكِنُ لِإِدْرَاكِنَا الْحِسِّيِّ خِدَاعَنَا.

عِنْدَمَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَاضِرِينَ هُنَا الْيَوْمَ، وَأَرْفَعُ إِبْهَامِي أَمَامَ عَيْنِي، كَالْفَنَانِ الَّذِي يَقِيسُ الْمُنْظُورَ وَالْمَسَافَةَ وَعَبَّرَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَعْمِضُ عَيْنِي الْيَسْرَى وَأَضَعُ إِبْهَامِي أَمَامَ عَيْنِي الْيُمْنَى، ثُمَّ أَنْظُرُ إِلَى السَّيِّدِ الْجَالِسِ فِي الصَّفِّ الْخَلْفِيِّ، سَأَرَى ظَفَرَ إِبْهَامِي يُخْفِي رَأْسَهُ كَامِلًا. رُبَّمَا أَسْتَنْبِجُ إِذَنْ أَنَّ هَذَا السَّيِّدَ الْجَالِسَ بِالْخَلْفِ قِزْمٌ، وَأَنَّ رَأْسَهُ فِي حَجْمِ ظَفَرِ إِبْهَامِي. لَكِنْ أَكْرُرُ، يَتَعَلَّقُ هَذَا بِالْمُنْظُورِ. وَبِإِدْرَاكِ الْأَبْعَادِ، نَتَعَلَّمُ التَّكْيِيفَ مَعَ الْأَمْرِ طَوَالَ الْوَقْتِ. وَكُلُّ هَذَا يُظْهِرُ حُدُودَ الإِدْرَاكِ الْحِسِّيِّ. فَثَمَّةُ أَصْوَاتٌ يُمْكِنُ لِكُلِّ سَمَاعِهَا لِكِنِّي أَعْجَزُ عَنْ سَمَاعِهَا. لَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْوَاتَ مَوْجُودَةٌ. بِالطَّبَعِ، نُوْجِدُ حُجَّةً قَدِيمَةً يَطْرَحُهَا الْفَلَسِيفَةُ تَقُولُ: "إِذَا وَقَعَتْ شَجَرَةٌ فِي الْعَابَةِ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مَوْجُودًا

لِيَسْمَعَهَا، فَهَلْ تُصْدِرُ صَوْتًا؟" وَالنُّسخَةُ الْأَحَدُثُ مِنْ هَذَا اللُّغزِ الفَلَسْفِيِّ هِيَ أَنَّهُ إِذَا قَالَ رَجُلٌ شَيْئًا فِي الغَابَةِ، وَلَمْ تَكُنْ امْرَأَةً مُوجُودَةً لِتَسْمَعَهُ، فَهَلْ يَظَلُّ عَلَى خَطَأٍ؟ إِذَنْ، يَتَعَلَّقُ الْأَمْرُ بِالمُوثُوقِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلإِدْرَاكِ الحَسِّيِّ. فَلَوْ كَانَتْ حَواشِنَا غَيْرَ جَدِيرَةٍ بِالثِّقَةِ فِي الْأَسَاسِ، لَنْ يُمَكِّنُنَا اسْتِخْلَاصُ آيَةِ اسْتِنْتِاجَاتٍ صَحيحةٍ مِمَّا نُلَاحِظُهُ، أَوْ نَسْمَعُهُ، أَوْ نَلْمُسُهُ. وَبِالطَّبْعِ، سَتَكُونُ هَذِهِ نَهَايَةُ العُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي نُمَارِسُهَا اليَوْمَ، وَالَّتِي تَعْتَمِدُ بِشَكْلِ كَبِيرٍ جَدًّا عَلَى الإِدْرَاكِ الحَسِّيِّ. وَقَطْعًا، كَانَ العِلْمُ دَائِمًا عَلَى دِرَايَةِ بِمُحْدُودِ الحَواشِنِ، وَحُدُودِ الإِدْرَاكِ الحَسِّيِّ. وَلِهَذَا، فَالْبَعْضُ مِنْ أَعْظَمِ الاكْتِشَافَاتِ فِي مَجَالِ العُلُومِ نَتَجَّ عَنِ اسْتِخْدَامِ مُعَدَّاتٍ مُطَوَّرَةٍ، تُحَسِّنُ قُدْرَتَنَا عَلَى الإِدْرَاكِ، كَالْمِجْهَرِ الَّذِي يَجْعَلُنَا نُبْصِرُ أَشْيَاءَ لَا تَرَى بِالعَيْنِ المُجَرَّدَةِ، وَنَعِي شَيْءَ أَنْوَاعِ الأَشْيَاءِ المُوجُودَةِ بِالفِعْلِ، وَالَّتِي لَا تَرَاهَا بِالعَيْنِ المُجَرَّدَةِ، لَكِنْ بِمُجَرَّدِ وَضْعِهَا تَحْتَ المِجْهَرِ، نُبْصِرُ مَا كَانَ قَبْلًا غَيْرَ مَنْظُورٍ. وَبِالمِثْلِ، غَيْرَ التِّلِسْكُوبِ جَدْرِيًّا مِنْ إِدْرَاكِنا لِاتِّسَاعِ الكَوْنِ، لِأَنَّ الأَشْيَاءَ الَّتِي لَمْ يَكُنْ بِإِمْكَانِنَا رُؤْيُهَا بِالعَيْنِ المُجَرَّدَةِ، أَصْبَحَتْ الآنَ مَنْظُورَةً بِوُضُوحٍ بِاسْتِخْدَامِ تِلْكَ الآلَةِ أَوْ الأَدَاةِ، الَّتِي تُعَزِّزُ مِنْ إِدْرَاكِنا الحَسِّيِّ.

لَكِنَّ هَذَا مَا قَالَهُ كُتَّابُ العَهْدِ الجَدِيدِ. فَبُطْرُسُ، مَثَلًا، الَّذِي ذَكَرْتُهُ قَبْلًا، قَالَ: "أَيُّهَا الإِخْوَةُ، لَسْنَا نُنَادِي لَكُمُ بِمُخْرَافَاتٍ مُصَنَّعَةٍ، وَإِنَّمَا نُخْبِرُكُمُ بِمَا رَأَيْنَاهُ بِأَعْيُنِنَا وَسَمِعْنَاهُ بِأَذَانِنَا". مِنْ أَبرزِ جَوَانِبِ القِيَامَةِ فِي العَهْدِ الجَدِيدِ هُوَ أَنَّهُ فِي صَبَاحِ يَوْمِ القِيَامَةِ، لَمْ يَحْدُثْ أَنْ جَاءَ البَعْضُ إِلَى القَبْرِ، وَوَجَدُوهُ فارِغًا، فَاسْتَخْلَصُوا اسْتِنْتِاجًا مِنَ القَبْرِ الفَارِغِ قَائِلِينَ: "لَا بُدَّ أَنَّهُ قَامَ، لِأَنَّنَا لَا نَسْتَطِيعُ العُثُورَ عَلَيْهِ". يُمَكِّنُ تَقْدِيمُ تَفْسِيرَاتٍ أُخْرَى بَدِيلَةً لِغِيَابِ الجُثْمَانِ، وَبِالطَّبْعِ، آخِرُ احْتِمَالٍ يُمَكِّنُ افْتِرَاضَهُ مُنطِقِيًّا هُوَ أَنَّهُ قَامَ. كَلَّا، فَشَهَادَةُ العَهْدِ الجَدِيدِ عَنِ قِيَامَةِ المَسِيحِ لَا تَقُومُ عَلَى اسْتِنْتِاجَاتٍ مِنْ قَبْرِ فارِغٍ، وَإِنَّمَا عَلَى شَهَادَةِ شُهُودِ عِيَانٍ. "إِنَّنَا رَأَيْنَاهُ، وَلِهَذَا نُخْبِرُكُمُ بِهِذِهِ الأُمُورِ بِصِفَتِنَا شُهُودِ عِيَانٍ". إِذَنْ، يَجْتَكِمُ الكِتَابُ المُقَدَّسُ بِاسْتِمْرَارٍ إِلَى المُوثُوقِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلإِدْرَاكِ الحَسِّيِّ، لِيقْدِمَ حُجَّتَهُ بِشَأْنِ الحَقِّ.

نَصلُ آخِرًا إِلَى الفِكرَةِ الغَامِضَةِ المُتَعَلِّقَةِ بِالاسْتِخْدَامِ التَّشَابُهِيِّ لِللُّغَةِ. قَدْ يَبْدُو هَذَا التَّعْبِيرُ مُعَقَّدًا بَعْضَ الشَّيْءِ، لَكِنَّهُ مُسْتَمَدٌّ بِبَسَاطَةٍ مِنْ كَلِمَةِ "تَشْبِيهِ". أَعْتَقِدُ أَنَّنَا نَعْلَمُ مَا هُوَ التَّشْبِيهِ - أَيُّ أَنْ يُشَبَّهَ شَيْءٌ مَا شَيْئًا آخَرَ. فَإِنَّنَا نَتَحَدَّثُ عَنِ أَوْجِهِ الشَّبَهِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ حَتَّى نَصِفَهُمَا. وَهَذَا مُهِمٌّ جَدًّا لِأَنَّ كَثِيرِينَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لِأَنَّ اللّٰهَ مُخْتَلِفٌ عَنَّا تَمَامًا، فَأَيُّهُ مُحَاوَلَةٌ مِنَّا لِلتَّحَدُّثِ عَنْهُ سَتَكُونُ غَيْرَ مَفهُومَةٍ، لِأَنَّ اللُّغَةَ البَشَرِيَّةَ قَاصِرَةٌ عَنِ وَصْفِ كَائِنٍ فَائِقٍ، أَوْ عَنِ قَوْلِ كَلَامٍ لَهُ مَعْنَى عَنْهُ. وَفِي الوَاقِعِ، كَانَ هَذَا مُحَوَّرَ الكَثِيرِ مِنَ التَّقْدِ الَّذِي وَجَّهَ لِلْمَسِيحِيَّةِ مِنَ فِلَسْفَةِ القَرْنِ العِشْرِينَ، قَائِلًا إِنَّ التَّصْرِيحَاتِ الدِّينِيَّةَ لَا تُخْبِرُنَا بِشَيْءٍ عَنِ الوَاقِعِ الخَارِجِيِّ، بَلْ فَقطُ تُخْبِرُنَا عَنِ أَنْفُسِنَا. وَإِنَّهَا مُجَرَّدُ تَصْرِيحَاتٍ مُحَرِّكَةٍ لِلْمَشَاعِرِ. فَهِيَ تَصِفُ عَوَاطِفِنَا، وَمَشَاعِرِنَا الدِّينِيَّةَ؛ لَكِنْ لَا نَظِيرَ لَهَا فِي الوَاقِعِ المُطْلَقِ، لِأَنَّ اللُّغَةَ - أَيُّ اللُّغَةَ البَشَرِيَّةَ - لَا تَسْتَطِيعُ فِي ذَاتِهَا أَنْ تَسْمُوَ فَوْقَ عَالَمِ البَشَرِ، وَأَنْ تَتَفَوَّهَ بِكَلَامٍ لَهُ مَعْنَى عَنِ كَائِنٍ فَائِقٍ. وَلِهَذَا، فَإِنَّ أَرَادَتِ المَسِيحِيَّةِ الصُّمُودَ أَمَامَ هَذِهِ الهَجَمَاتِ المُوجَّهَةِ إِلَيْهَا عَلَى صَعِيدِ اللُّغَةِ، يَجِبُ أَنْ نَتَمَكَّنَ مِنْ صِيَاغَةِ أَوْجِهِ

شَبَّهَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ، كَيْ يَكُونَ لِحَدِيثِنَا عَنْهُ مَعْنَى. وَلِهَذَا، مَثَلًا، فِي بَدَايَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، نَحْدُ تَأَكِيدًا عَلَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ كَشَبْهِهِ، وَعَلَى وُجُودِ تَشَابُهِ بَيْنِ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، يَجْعَلُ الْحَدِيثَ عَنْهُ مُمَكِّنًا.

سَنَتَنَاوَلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ عَلَى حِدَةٍ فِي الْأَيَّامِ الْمُقْبِلَةِ، حَتَّى نَكْتَشِفَ بِمَزِيدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ مَدَى أَهْمِيَّةِ كُلِّ مِنْهَا لِلدِّفَاعِ عَنِ الْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيْرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو ( St. Andrews Chapel ) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ ( Reformation Bible College ) وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهُوتِيُونَ" و"أَدَهْسَنِي الْأَلَمُ".